الأدب في العصر الإخشيدي
(324هـ 357هـ)

أتى حين من الدهر على مصر بعد العهد الطولوني لم تكن إلا ولاية تابعة للخلافة العباسية، وكان الولاة آنذاك من الضعف بمكان حتى تولى محمد بن طغج الإخشيدي [1]، فحاول أن تكون له مصر خالصة دون العباسيين كما صنع ابن طولون، فاستقل بها، وأسس الدولة الإخشيدية، وقد ساعده على هذا الاستقلال ضعف الخلافة العباسية، واستبداد العنصر التركي بالأمور في بغداد، وكثرة الفتن والاضطرابات والثورات في حاضرة الدولة وأمصارها.

وكان استقلال ابن طغج الإخشيدي بمصر سببًا في استمرار النهضة الفكرية والأدبية التي بدأت تتأقلم في العصر الطولوني، وكان من مظاهر هذه النهضة ظهور كتاب وشعراء مصريين، وتنوع الأغراض والأساليب الشعرية، واتصال شعر هذه الفترة بالطبيعة، وتأثره بالروح المصرية والحياة في مصر.

ومن أهم الأغراض التي نظم فيها شعراء العصر الإخشيدي ما يلي:

أ- الهجاء:

الهجاء فن شعري قديم، وقد وجد في الأدب المصري منذ الفتح العربي، ولكن الشيء اللافت للنظر هنا أننا نرى فيه فحشًا في القول كالذي نجده عند الفرزدق والأخطل وجرير، وكالذي رأيناه عند محمد بن داوود في العصر الطولوني.

هذا بالإضافة إلى ظهور لون جديد منه، وهو هجاء القضاة، ويمكن أن نطلق عليه الهجاء القضائي أو الشعر القضائي، وإن كان له جذوره منذ عصر الولاة العباسيين، لكنه امتد وعلا بصورة واضحة لم نجد لها مثيلًا من قبل في الشعر المصري.

---

(1) انظر: الولاة والقضاة، ص 286.
- المغرب في حلى المغرب، ص 148 وما بعدها.
- النجوم الزاهرة، ج 3.

والحق أننا لا ندري سببًا يقينيًّا أو دافعًا حقيقيًّا أساسيًّا وراء هذا اللون، وربما كان مرد ذلك إلى سوء خلق بعض القضاة وأحكامهم الجائرة التي كانوا يطلقونها، وربما كانت العداءات الشخصية وراء ذلك اللون، ولعل خروج بعض القضاة على مسائل الدين وأمور الشرع وراء ظهور هذا الهجاء، ومن أمثلة هذا اللون قول ابن سكرة في هجاء القاضي محمد بن الحسين بن أبي الشوارب، الذي يفهم منه أن ذلك القاضي قد هتك الشريعة، وأتى ببعض البدع والأمور التي لم تعجب الشاعر، فانطلق ابن سكرة قائلًا:

وَلقـــدْ جَنَـــى قـــاضِي القُـــضَا ةِ حُـــسينُ نجـــلُ أبي الـــشوارِبْ
هَـــذا الـــذي هَتَـــكَ الـــشَّرَا ئِـــعَ بالبـــدائعِ والمَثَالِـــبْ (1)

ومن القضاة الذين هجاهم شعراء ذلك العصر القاضي عبد الله ابن أحمد بن شعيب، المعروف بابن أخت وليد، أو بابن وليد، يقول فيه محمد بن بدر:

أصبحتَ في الدِّين بينَ النَّاسِ مُتَّهَمًا أعْمَى عنِ الرُّشْدِ في كلِّ الأمورِ فقدْ
يـابنَ الوليـدِ تـدبَّرْ مـا أتيـتَ بـه ولا تكـنْ لِلهَـوى مستكملًا عَمَـمَا (2)

ولم يقتصر الشعراء على هجاء من حادوا عن الشريعة من قضاة؛ بل سلطوا ألسنتهم على الكثيرين، حتى على من كان يعرف بالعلم والزهادة والعبادة، مثل القاضي محمد بن أحمد الحداد، الذي تولى قضاء مصر سنة 324هـ، فلقد قيل إن خصومه قد ألقوا برقعة في الجامع فيها شعر، يعرضون فيه بابن الحداد، يقولون فيها:

قُولُـــوا لحـــدَّادِنَا الفقيـــهِ العـــالِمِ المـــاهرِ الوجيـــهِ
وَليـــتَ حُكـــمًا بغـــيرِ عهـــدٍ وغـــيرِ عَقْـــدٍ نظـــرتَ فيـــهِ
أنكـــرتَ حـــالًا مـــن ابـــنِ عمـــرٍو مـــا أنـــتَ فيـــهِ ومُرْتَـــضِيهِ

(1) الولاة والقضاة، ص 546.
(2) الولاة والقضاة، ص 570.

وخُنْـــــتَ عهـــــدًا والله ربِّي لنـــــاقضِ العهـــــدِ مُبْتَلِيـــــهِ
والمكـــرُ في النَّـــاس داءُ ســـوءٍ والعُجْـــب أيـــضًا لمرتديـــه[1]

ويبدو أنهم لم يكونوا على حق في هذا الهجاء؛ ولذلك هب مجموعة من الشعراء، يدافعون عن ابن الحداد ويمدحونه، مثل ابن أبي الكحال، الذي يقول:

كالـــشافعي تفقهًـــا والأصـــمعيِّ تفكهًـــا والتـــابعيِّ تزهـــدَا [2]

ومثل سيبويه المصري الذي يقول:

مَـــا يَـــضُرْ البحْـــرَ أمْـــسَى زَاخِـــرًا أنْ رَمَـــى فيـــه صَـــبيٌّ بِحَجَـــرْ [3]

ب- الرثاء:

إذا كان الرثاء مظهرًا من مظاهر الوفاء للميت، وتقربًا للأحياء من ذويه، ومشاركة في الحزن، ونوعًا من المجاملة، فإن ذلك كله ظهر في موت محمد بن طغج الإخشيدي؛ فلقد كان موته أكبر مثير لشاعرية عدد من شعراء عصره.

ومن الشعراء الذين وقفوا يرثون الإخشيد، ويبكون ويذرفون الدموع سخينة، والعبرات غزيرة، محمد بن الحسن بن زكريا، الذي نظم قصيدة طويلة، تحدث فيها عن الموت، وأنه الكأس الدائرة التي لا بد أن يتذوقها كل كائن حي، مهما طال عمره وامتد أجله، كما تحدث فيها عن فناء الدنيا وزوالها، وأن الإنسان لا مفر له من منية يقابلها، وحتف يصادفه حين ينتهي أجله، يقول ابن زكريا باكيًا ومعزيًا ومجاملًا، ومعبرًا عن نهاية الإنسان:

في الرَّزايَـــا روائـــعُ الآجـــالِ والبرايَـــا دَرِيئَـــةُ الآجـــالِ

(1) الولاة والقضاة، ص 556.
(2) الولاة والقضاة، ص 557.
(3) الولاة والقضاة، ص 557.

وكـــذا اللَّيـــلُ والنَّهـــارُ اعتبـــارٌ ... للـــورَى في تَفكُّـــرِ الأحْـــوالِ
كُـــلُّ شيءٍ وإنْ تَمَـــادى مَـــداهُ ... عُمْـــرُه للفَنَـــاءِ أو للـــزوالِ
مَـــا لخلـــقٍ مـــن المنُـــونِ مفـــرٌّ ... لاَ ولاَ دُونَ بطْـــشِها مـــن مـــآلِ
فَجَعتْنَـــا بواهِـــبٍ لا نـــراه ... يَخْلـــقُ الوجْـــهُ عنـــده بابتـــذَالِ
فجعتْنَـــا ببهجـــةِ الأرْضِ في الأر ... ضِ وشـمسِ الـضُّحى وبـدرِ الليـالِي
فجعْتَنـا بمَـنْ حَمَـى حُرمـةَ الإسْـ ... ـلامِ مِـــنْ حـــادثٍ ومِـــنْ خَتَّـــالِ
فجعْتَنـــا بالباســـلِ البطَـــل الـــسَّا ... مِـــي غـــداةَ الـــوَغَى إلَى الأبْطَـــالِ
عَجَـــبٌ إذ دَنَـــتْ إليـــهِ المَنَايَـــا ... وحِمَـــى عـــزِّه المنيـــعِ العَـــالِي
أيـنَ مـنْ يَشْـتَرِي المـدائحَ والشُّكْـ ... ـرَ بأسَـــنْى وَفْـــرٍ وأوفَى نَـــوالِ
قَطَـع المـوتُ وصْـلَنا مِنْـهُ كُرْهًـا ... والـرَّدَى قـاطِعٌ لكـلِّ اتِـصَالِ[1]

ومن الشعراء الذين رثوه أيضًا مهلهل بن يموت، الذي نظم قصيدة تدور حول هذه المعاني نفسها، يقول فيها:

أيُّ عـــزٍّ مَـــضَى مـــنَ الإســـلامِ ... أيُّ ركـنٍ أضَـحْى حـديثَ انْهِـدَامِ
ذَاقَ مَوْتًـــا مُحَمَّـــدُ بـــنُ طُغْـــجٍ ... هُـــو ليـــثُ الـــشَّرَى وغَيْـــثُ الغَـــمَامِ
أيَـنْ مَـا كُنْـتَ فيـهِ مِـنْ عِـزِّك البَـا ... ذِخِ والمُرْتَقَـــى عزيـــزِ المُـــرَامِ
فَقَـــدَ النَّـــاسُ مَـــوْلَى الإنْعَـــامِ ... فَهُـــمُ سَـــائِمونَ كالأنْعَـــامِ
أيـــنَ ذاكَ الحجـــابُ والمُلْـــكُ والهَيْـــ ... ـبُـــة أيـــنَ الزِّحَـــامُ وَقْـــتَ الزِّحـــامِ

(1) نهاية الأرب، النويري، ج 5، ص 186، ط تراثنا، وزارة الثقافة – مصر، بدون تاريخ.

لَمْ يُطِقْ جَمْعُهم دِفَاعَ الرَّدَى عَنْـ ... ـكَ ولمْ يَمْنَعوكَ مَنْعَ اعتِصَامِ
فَقدْتك الفُسْطاطُ وَجْدًا مَدَى الدَّهْـ ... ـرِ ومِنْ بَعْدِهَا بِلادُ الشَّامِ
عَمَّ فيكَ المُصَابُ فاشْترِكَ العَا ... لمُ في الرُّزْءِ منْهُ والآلامِ
حَسْبُنا اللهُ عَزَّ مِنْ حَكَمٍ يجْـ ... ـرِي عَلَى الحَاكِمينَ بالأَحْكَامِ
كُلُّ شيءٍ إلى زَوَالٍ ومَنْ ذَا ... نَالَ مُلْكَ الدُّنيا بغَيرِ اخْتِرَامِ[1]

ج- فن الديارات[2]:

وجدت في مصر في ذلك العصر أديرة كثيرة، كان يؤمها الشعراء، ويقصدها العابثون، وكانت هذه الأديرة تقع في مواقع جميلة، يحيط بها جنات من نخيل وأعناب وحدائق وزهور وبساتين، وكانت هذه الأديرة مقاصف لهو، ومعازف غناء، ومجامع سمر وسهر وعربدة، ومنتديات لشرب الخمور والغزل في الظباء.

وقد وجد هذا الفن منذ العصر الطولوني، ورأينا له أسبابًا، لكنه في هذا العصر امتد وعلا صوته، وكثر الشعر في وصف هذه الأديرة، وما يتصل بها من المجالس المملوءة باللاهين والعابثين والسكارى والماجنين.

وكان الشاعر الذي يختلف إلى تلك الأديرة يمزج في شعره بين وصف لها وللطبيعة حولها، وبين حديث عن الخمور ومجالسها وزقاقها ودنانها وندمائها.

ولكن الشيء اللافت للنظر في شعر الأديرة في هذا العصر، أن الشعراء قد مزجوا ذلك كله بالحسرة واللوعة على أيام مضت قضوها في جنبات تلك الأديرة حينما باعد الزمن بينهم وبينها.

---

(1) نهاية الأرب، ج 5، ص 188، 189.

(2) انظر: شعر الديارات في مصر من العصر الطولوني إلى العصر الفاطمي، د. غريب محمد علي، مجلة آداب حلوان، عدد 9، 10، سنة 2001.

ومن شعراء هذا العصر الذين يذكرون هذه الأديرة ويصفونها ويتحدثون عن أيامهم الماضية ولياليهم الخوالي التي قضوها لاهين عابثين، أبو هريرة بن أبي عاصم (العصام)، الذي يقول في دير القصير (يقع هذا الدير على النيل قرب حلوان):

كَمْ لِي بدَيْرِ القُصيرِ مِنْ قَصْفٍ ... مَعْ كلِّ ذِي صَبْوةٍ وذِي ظَرْفِ

لَهُوتُ فيهِ بشَادِنٍ غَنِجٍ ... تقصرُ عنهُ بدائعُ الوَصْفِ [1]

ولمحمد بن عاصم في هذا الدير أيضًا قوله:

إنَّ ديْرَ القُصَيْرِ هَاجَ ادِّكارِي ... لَهْوَ أيَّامِي الحِسانِ القِصارِ

وَزَمَانًا مَضَى حَمِيدًا سَرِيعًا ... وشَبَابًا مثْلَ الرِّداءِ المُعَارِ

فَلَو انَّ الدِّيارَ تَشْكُو اشْتِيَاقًا ... لشَكتْ جَفْوتِي وَبُعْدَ مَزَارِي

كَمْ خَلَعْتُ العِذارَ فيهِ وَلَمْ أرْ ... عَ مَشيبًا بِمَفْرِقِي وعِذارِي

فسقَى اللهُ أرضَ حُلوانَ فالنَّخْـ ... ـلَ فدير القُصيرِ صَوْبَ القِطَارِ [2]

ولابن أبي عاصم شعر في دير طمويه (يقع هذا الدير في الغرب بإزاء حلوان)، يقول فيه:

كأنَّما النيلُ في مرِّ النَّسيمِ بِه ... مُسْتلئِمٌ في دُروعٍ سَابُرِيَّاتِ

مَنَازِلٌ كنْتُ مفتونًا بِها شَغَفًا ... وكُنَّ قِدْمًا مَواخِيرِي وحَانَاتِي

إذْ لا أزالُ مُلِمًّا بالصَّبوحِ عَلَى ... ضَرْبِ النَّواقِيسِ صَبًّا بالدِّيارَاتِ [3]

(1) يتيمة الدهر، الثعالبي، ج 1، ص 487، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، سنة 1983.

(2) الديارات، ص 285، 287، وانظر: ابن عاصم الموقفي.

(3) الخطط، ج 4، ص 414؛ الدرايات، ص 299.

=

وهناك شاعر آخر يدعى ابن البصري، له شعر كثير في الأديرة، خاصة دير نهيا (يقع في الجيزة، وهو من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موقعًا، يقول فيه:

يــا للــديارات المِــلاحِ ومَــا بِهَــا مِــنْ طِيــبِ يــومٍ مَــرَّ لِي بتَــشَوُّقِ

أيــامَ كنــتُ وكــانَ لِي شُــغْلٌ بِهــا وأســيرُ شــوقٍ صَــبابَتِي لَمْ يُطْلَــقِ

يــا ديــرَ نَهْيــا مــا ذكرتُــك ســاعةً إلا تــذَكَّرْتُ الــشَّبابَ بِمَفْرَقِــي

يــا ديــرَ نَهْيــا إِنْ ذُكِــرتَ فــإِنَّني أَسْعَى إليكَ علَى الخيولِ السُبَّقِ (1)

وهناك أغراض شعرية كثيرة، مثل المدح ووصف الطبيعة، لا نود أن نقف عندها، إنما نود أن نقف عند شخصية مثلت لنا ذلك العصر أصدق تمثيل، وكان لها من الشهرة والذيوع الشيء الكثير، وهي شخصية سيبويه المصري.

***

=

وانظر: ابن عاصم الموقفي شاعرًا، د. محمد عبد الحميد سالم، ص 76، ط هجر، 1990، والبيت الثاني كما جاء عنده (منازلا كنت مفتونًا بها يفعًا).

(1) الديارات، ص 295.

سيبويه المصري [1]
(ت 358هـ)

هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي، المعروف بسيبويه المصري، المولود في مصر سنة 284هـ، وقد عرف بسيبويه لبراعته في النحو، وعرف بألقاب أخرى غير ذلك.

كان سيبويه المصري يحفظ القرآن الكريم، ويعلم كثيرًا من معانيه وقراءاته وإعرابه وأحكامه، عالمًا بالحديث النبوي الشريف وغريبه ورواته، وكان ملمًّا بأيام العرب، وكثير من النوادر والأشعار، وكان هو نفسه شاعرًا، وناثرًا فصيحًا، وناقدًا بصيرًا، وله نظرات في الأدب جميلة، مثل قوله: "إن أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه، وعذبت معانيه، واستسلس على ألسنة ناطقيه، ولم يستأذن على آذان سامعيه" [2].

وكان فكهًا ساخرًا، يروي كثيرًا من الطرائف، ويسرد كثيرًا من الحكايات، حاضر البديهة، سريع النكتة، لا يفوته موقف إلا علق عليه بنادرة طريفة أو حكاية ظريفة. وكان - بالإضافة إلى ذلك – واعظا، يذكر الأمراء في المجالس، ويعظ الناس في المساجد والأسواق والطرقات.

تتلمذ على يد محمد بن أحمد بن الحداد القاضي الفقيه المعروف في ذلك العصر، كما تتلمذ على يد مجموعة أخرى من العلماء، مثل أبي جعفر الطحاوي، وأبي هاشم المقدسي، وأبي علي الواسطي.

---

(1) انظر: بالتفصيل كتاب: دراسات في أدب مصر الإسلامية، د. غريب محمد علي، ط البيان، القاهرة، سنة 1988؛ وانظر: أخبار سيبويه المصري، ابن زولاق، ط الآداب، سنة 1933، تحقيق: محمد إبراهيم وحسين الديب.

(2) أخبار سيبويه، ص 22.

عرف سيبويه المصري بالصلاح والتقوى والتدين والورع والرفعة والسماحة والعفة والنسك والاعتداد بالنفس، كما عرف بالجرأة، وخاصة في نقد الحكام والتندر منهم، وعرف أيضًا بالشجاعة والسخرية وسلاطة اللسان وثبات الجنان.

من أجل ذلك كله كان مطلوبًا من قبل الحكام، حتى صار نديمًا لكثير منهم، خاصة أنوجور بن الإخشيد، الذي طلبه لينادمه، فقال له سيبويه على شرط: أن أنزل حيث تنزل، وأركب حيث تركب، وأجلس متكئا، فأجابه على شرطه، وهذا يدلنا على قوة شخصية سيبويه وشدة اعتزازه بذاته.

لقد ملأت أخبار سيبويه الآفاق، إلى درجة أن جوهر الصقلي قال حينما دخل مصر، وقد سمع عنه: "لو أدركته لجعلته في جملة الهدية إلى مولانا المعز "(1)، وقال عنه **فاتك:** " ذكِّروني به؛ فلعلي أستدعيه فإنه نزهة "(2).

وكان سيبويه المصري – بالإضافة إلى ذلك كله – اشتراكي الميول، يكره الأغنياء وعلية القوم، وكان معظمهم يهابونه ويخشونه، وكانت جماهير الشعب تلتف حوله وتكتب عنه وتحبه وتتناقل كلماته.

لقد تمثلت في شخصية سيبويه المصري جوانب عديدة؛ فلقد كان عالمًا واعظًا مذكرًا متندرًا متظرفًا، ناثرًا، شاعرًا، ناقدًا، وقد أشرنا إلى شيء من تلك الجوانب، كجانب الوعظ والتذكير والعلم، وأما الظرف فلدينا أدلة على ذلك، منها قوله الذي يشير إلى خفة الروح والدم والظل والتفكه:

مَـــا لَيْلَـــةُ المُـــشْتَاقِ بَـــا عـــدَتِ النَّـــوى فيـــهِ أنَيـــسَه
أو ليلـــــةُ الملْـــــدُوغِ حَـــــا ذَرَ مِيتَـــــةَ الـــــنَّفْسِ النَّفِيـــــسَه
بِأَمَـــــدَّ مِـــــنْ لَيْـــــلِ الظَّرِيـــــ ـــــفِ إذَا تَجَـــــوَّعَ للهَرِيـــــسَه[3]

(1) ابن زولاق، ص 36.
(2) ابن زولاق، ص 17.
(3) ابن زولاق، ص 46.

وأما جانب الناثر فلقد كان له نثر غني بالسجع، وهو نثر يشبه سجع الكهان، لكن بعضه كان خفيفًا، تظهر فيه الصنعة الفنية، ومن ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة وقد تجمعوا في الطرقات، فصاح فيهم: "ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة؟! سلط عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة، تغلي قلوبهم واجفة"[1].

ومن نثره أيضًا قوله عندما علم أن الناس يتزاحمون حول الإخشيد: "هذه للأصلع البطين، المسمن البدين، قطع الله منه الوتين، ولا سلك به ذات اليمين، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان، ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان، لا قبل الله منه صلاة، ولا قرب له زكاة، وعمر بجثته الفلاة"[2].

وبالإضافة إلى أنه كان ناثرًا، كان شاعرًا، وشعره سهل يسير، ولكنه فقير إلى الصور الشعرية الجيدة، ومن ذلك قوله:

فـإنْ سَـلَكْتَ طريـقَ العِلْـمِ تَطْلُبُـه ... بالبحـثِ أُبْـتَ بتكفـيرٍ مِـنَ النَّـاسِ

فـاخْتَرْ لنفـسِكَ مَـا زادتْ فواضِـلُه ... عَـلَى نواقِـصِه تخـترْ بقِـسْطَاسِ

واقْـصِدْ إلى العِلْـمِ لا تطلـبْ بِـه بَـدَلَا ... فالعِلمُ مـنْ أجْلِه كُوِّنْـتَ في النَّاسِ[3]

وقوله:

وإذَا المَـرْءُ آبَ نَحْـوَ مُـسِيءٍ ... بـسِوى ذَا فـساقِطٌ لا يُـلام

توبـةٌ منْـهُ أو ظهـورٌ عليـهِ ... أو حِجَـاجٌ أو اعتِـذَارٌ يُقَـام[4]

ومما يدلنا على أنه كان راويًا للشعر حافظًا يروي الرواية أحيانًا بسندها، ما رواه متصلًا عن عوف بن محلم الشيباني، قال: عادلت عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فدخلنا

(1) ابن زولاق، ص 28.
(2) ابن زولاق، ص 28.
(3) ابن زولاق، ص 20.
(4) ابن زولاق، ص 45.

الري في وقت السحر، فإذا قمرية تغرد على فنن شجرة، فقال عبد الله بن طاهر: أحسن والله أبو كبير الهذلي حيث يقول:

ألاَ يـا حمـامَ الأيـكِ إِلْفُـكَ حـاضرٌ وغُـصْنُكَ ميَّـادٌ ففـيمَ تَنُـوحُ؟!

ثم قال يا عوف أجز، فقلت أعز الله الأمير: شيخ ثلب حملته على البديهة، لا سيما في معارضة أبي كبير، ثم انفتح لي، فقلت:

أفِي كُـلِّ عـامٍ غُرْبَـةٌ ونـزوحُ أمـا للنَّـوى مِـنْ ونْيـةٍ فنـرِيحُ [1]

ومما يدلنا على ذلك أيضًا أنه قال للمتنبي: "هذا رجل منا يريد نفسه"، قال:

أتَـانِي في قمـيصِ الـلاَّذِ يَـسْعَى عـدوٌّ لِي يُلقَّـبُ بالحبيـبِ

فقال المتنبي: أمع هذا غيره؟ قال نعم:

وَقَـدْ عَبَـثَ الـشَّرابُ بوجْنَتَيـهِ فَـصيَّر خـدَّه كَـسَنَا اللَّهِيـبِ

فقُلْـتُ لَـهُ مَتـى اسْـتَعْملتَ هَـذَا لقـدْ أقْبَلْـتَ في زِيٍّ عَجِيـبِ [2]

وأما الجانب الأخير من جوانب شخصية سيبويه المصري، فهو جانب الناقد، فلقد كان بصيرًا بالنقد، وله نظرات فيه، لا يتحامل ولا يجامل، ومما يروى في ذلك، أنه كان يتعقب المتنبي في مصر، ويظهر عيوبه، ويتصيد سقطاته، ومن نقده لشعر المتنبي، إنكاره لهذا البيت الذي يقول فيه المتنبي:

ومِـنْ نَكَـدِ الـدُّنيَا عَـلى الحُـرِّ أنْ يَـرى عـدوًّا لَـهُ مَـا مِـنْ صَـدَاقتِه بُـدُّ

فقال: "هذا كلام فاسد؛ لأن الصداقة ضد العداوة، والصداقة مأخوذة من الصدق، ولو كان قال:

ومِـنْ نَكَـدِ الـدُّنيَا عَـلَى الحُـرِّ أنْ يَـرى عَـدوًّا لـه مَـا مِـنْ مُدَارَاتِـه بُـدُّ

(1) ابن زولاق، ص 54.

(2) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ص 114، تحقيق مصطفى السقا، ط1، دار المعارف.

لكان أحسن وأجود [1].

ومع تصيده سقطات المتنبي، فقد كان يعجب أيما إعجاب إذا ما صادف بيت للمتنبي هوى في نفسه، ومن ذلك أنه سمع مرة قول المتنبي الذي يرثي فيه ابن الفصيص:

ما كُنْتُ آمَلُ قبلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرى ... رَضْوَى عَلَى أيدِي الأنَامِ يَسِيرُ

ما كُنْتُ أحْسَبُ قبلَ دَفْنِكَ في الثَّرَى ... أنَّ الكواكبَ في التُّرَابِ تَغُورُ

خَرَجُوا بِهِ ولِكُلِّ بَاكٍ حَوْلَهُ ... صَعقاتُ مُوسَى يومَ دُكَّ الطُّورُ

حتَّى أتَوْا جَدثًا كأَنَّ ضَرِيحَهُ ... فِي قَلْبِ كُلِّ مُوحِّدٍ مَحْفُورُ

فصاح قائلًا: لبيك أنا عبد هذه الأبيات [2]؛ مما يدل على ذوق حسن، ونقد صحيح، وتقدير للأدب.

هذا هو سيبويه المصري رقيق النفس، دقيق الحس، الذي يعد بحق طرفة مصر في عصره: علما وأدبًا وفكاهة وظرفًا ووعظًا، ورواية للشعر ونقدًا.

***

(1) الصبح المنبي، ص 113.

(2) ابن زولاق، ص 47.